تمظهرات السير ذاتي في كتاب "المنقذ من الضلال " لأبي حامد الغزالي (450هـ-505هـ)

Biographies of Biographies in the Book of the Savior of Misguidance For Abu Hamid al-Ghazali (450 AH-505 AH)

تاريخ الاستلام : 2019/09/13 ؛ **تاريخ القبول :** 2021/02/25

ملخص

تقوم هذه الدراسة على البحث في بنية السير ذاتي في كتاب "المنقذ من الضلال" لأبي حامد الغزالي ، بوصفه نصا سرديا يعكس جانبا من حياة الغزالي الفكرية والعلمية ،ورحلته للبحث عن اليقين.

.

الكلمات المفتاحية: سير ذاتي؛ منقذ من الضلال"؛ أبو حامد الغزالي؛ سرد.

* صباح غرايبية

قسم الآداب واللغة العربية. كلية الآداب واللغات. جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر.

Abstract

This study is based on research in the structure of the self-biography in the book of Abu Hamid al-Ghazali named "Savior of the illusion" .Car it represents a narrative text that shows a part of the intellectual life and al-Ghazali's scientist. And his journey in search of certainty.

Keywords: structureself-biography; Savior of the illusion; of Abu Hamid al-Ghazali; certainty.

Résumé

Cette étude est basée sur la recherche dans la structure de l' auto-biographie dans le livre d'Abu Hamid al-Ghazali nommé "Sauveur de l'illusion".Car il représente un texte narratif qui montre une partie de la vie intellectuelle et scientifique d'al- Ghazali.Et son voyage à la recherche de la certitude.

Mots clés structure.auto-biographie; 'al- Ghazali.; Sauveur de l'illusion;la certitude.

* Corresponding author, e-mail: s.gheraibia@mail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2021.

I – مقدمة

تُحسب السيرة الذاتية على الفنون الأدبية النثرية ذات الطابع التوثيقي؛لأنها تعكس جانبا من حياة الفرد، وتقدم لمحة عن الأجواء الفكرية والأدبية السائدة في عصره، التى ساهمت في صقل تجاربه وتحديد مواقفه ورسم مبادئه وتوجهاته. فهل يمكن أن تُتلمس بعض من ملامح النص السيرذاتي في كتاب **"المنقذ من الضلال "** لأبي حامد الغزالي،وماهي أبعادها وأطرها العامة .

أولا: أبو حامد الغزالي نشأته ومؤلفاته1: ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ،سنة (450هـ -1058م) في الطابران، (قصبة طوس،بخراسان).وتلقى مبادئ اللغة العربية و الفقه في بلده على الإمام" أحمد بن محمد الراذكاني" ، ثم انتقل إلى جرجان وهو دون العشرين ، ودرس على الإمام أبي القاسم إسماعيل بن مسعده الإسماعيلي، ثم عاد إلى طوس ومكث بها ثلاث سنين ،ارتحل بعدها إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين " عبد الملك بن عبد الله الجويني "؛ الذي وجد فيه المعرفة بكل أبعادها وشمولها، وأخذ عنه الفقه ،والأصول، والجدل، والمنطق،والفلسفة.وبعد وفاة إمام الحرمين ؛تاقت نفس الإمام إلى مجالس الملك التي كانت ندوات علميةجامعة ، وقد استطاع أن يبهر الجميع بسعة علمه وسرعة بديهته مما ملأ قلب الملك إعجابا، فعينه مدرسا في المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي آنذاك ،وبقي فيها أربع سنوات (484هـ-488هـ) قضاها في دريس والتأليف في الفرق الأربعة التي تقاسمت الساحة الفكرية آنذاك من معتزلة ، و باطنة ، وفلاسفة ، وصوفية

- رحل الغزالي وارتحل من بغداد إلى نيسابور و إلى دمشق والحجاز والقدس .في رحلة للبحث عن اليقين ، عاد بعدها إلى طوس، التي لبث فيها بضع سنين حتى تُوفي يوم الاثنين 14 جمادى الآخرة 505هـ، الموافق 19 ديسمبر 1111 م. مخلفا وراءه إرثا فكريا ومعرفيا هائلا مما جعل المستشرقين ،الباحثين والمحققين يجتهدون في تحقيق نسبتها إليه. وقد حاول الباحث "الدكتور مشهد العلاّف" إحصاءها في كتابه "كُتُب الإمام الغزالي الثَّابت مِنها والمنحول"2 واستقر على تقسيم ما توصلوا إليه إلى قسمين :

القسم الأول :كتب الغزالي الثابتة النسبة إليه مصنَّفة حسب المباحث:

* **الفقه:** له كتاب "البسيط" ، "الوسيط" ،"الوجيز" ،"خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر"،"غاية الغور في دراية الدور" ، "غور الدور"في المسألة السريجية ، "الفتاوى" ،"فتوى"و"حقيقة القولين".

* **علم أصول الفقه:** اهتم بعلم الخلاف وطرق المناظرة أو الجدل والخلافيات:فألف"المنخول من تعليق الأصول" ،"تهذيب الأصول"،"شفاء الغليل في بيان الشَبَه والمُخيلِ ومسالك التعليل"،"المستصفى من علم الأصول"و "أساس القياس".

***علم الخلاف وطرق المناظرة:** ويشمل كتاب "مآخذ الخلاف" ، "لباب النظر"،"تحصين المآخذ"، "المبادىء والغايات" ، "مقاصد الفلاسفة"و"تهافت الفلاسفة".

***المنطق:**وله فيه كتابان"معيار العلم"و "محك النظر"

***في فقه الآخرة والزهد وتزكية النفس والتربية الروحية، والاخلاق وعلم النفس والاجتماع والسياسة** له عدة مؤلفات **هي:** "إحياء علوم الدين" ،"الإملاء على مشكل

"الإحياء"،"كيمياء السعادة" باللغة الفارسية ،"بداية الهداية، "زاد آخرت" باللغة الفارسية،"ميزان العمل"،"ايها الولد"، "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"-"رسالة إلى بعض أهل عصره"و"تفسير ياقوت التأويل".

***علم الكلام: وله فيه** "قواعد العقائد" أو "الرسالة القدسية في قواعد العقائد"، "الرسالة الوعظية"، "الاقتصاد في الاعتقاد"،"فيصل التفرقه بين الإسلام والزندقة"،"الأربعين في أصول الدين"، "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى"، "القانون الكلي في التأويل".

***الفِرَق وبيان فساد مذهب الباطنية:** ألف في هذا الباب "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" ،"حجة الحق" ، "قواصم الباطنية"، "مفصل الخلاف"،"الدرج المرقوم بالجداول"،"القسطاس المستقيم"و "المنتحل في علم الجدل".

***نقد علم الكلام والتصوف والباطنية والفلسفة، وبيان علاقة العقل بالنقل: له فيه كتابان جامعان هما** "المنقذ من الضلال"و "جواهر القران".وأخيرا "إلجام العوام عن علم الكلام" وهو كتاب في مذهب أهل السلف ،ويعد آخر ما كتب الإمام الغزالي رحمه الله.

القسم الثاني :الكتب والرسائل الموضوعة والمنحولة على الإمام الغزالي والتي نُسِبَت إليه وهي ليست له.(وهي كثيرة لا يتسع المقام لذكرها).

3/ لمحة عن كتاب "المنقذ من الضلال"أو"المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال"

يُصنف كتاب المنقذ من الضلال ضمن مؤلفات الإمام الغزالي المشهورة ؛لأنه يعكس جزءًا من سيرته العلمية والفلسفية بأسلوب راق وفكر عميق ، وأمانة واضحة ..."وقد أفاد الباحثون شرقاً وغرباً من هذا الكتاب. كما أفاد منه الفلاسفة وخصوصاً ديكارت في الشك المنهجي..." . وترجم إلى عدة لغات أجنبية منها اللاتينية ،والفرنسية ،والإنجليزية ،والتركية،والهولندية ،والألمانية.... وكتبت عنه العديد من الدراسات ،وذكره العلامة تاج الدين السبكي في كتابه "طبقات الشافعية الكبرى" وذكره الحسيني الواسطي في كتاب" الطبقات العليا" ، وطاش كبرى زاده، وابن العماد، والزبيدي....وهو مطبوع عدة طبعات.."3.

وتعد سيرة الغزالي التي تجلت بعض ملامحها في كتابه المنقذ من الضلال " واحدة من أهم السير الذاتية الروحية في التراث العربي ،لأنها استوعبت معظم خصائص هذا النوع من السير ، و جاءت في كتاب مستقل4 .رغم أن صاحبها لم يقصدها لذاتها بل جاءت في إطار كشفه عن تفاصيل رحلته للبحث عن اليقين .

ثانيا مفهوم السيرة الذاتية :

السيرة في اللغة مشتقة من الجذر اللغوي (س ي ر). وقد وردت هذه المادة للدلالة على السّنة و الطريقة في أكثر من معجم منها؛معجم لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، وقد جاء فيه: "السيرة:الطريقة. يقال"سار بهم سيرة حسنة،والسيرة الهيئة .وفي التنزيل العزيز:" سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى" طه 21. وسيَّر،سيرةً:حدّث أحاديث الأولين "5. بمعنى تتبع الطريقة، والإخبار عن أحاديث الأولين .وهي الدلالة ذاتها التي تحيل إليها اللفظة عند مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، في القاموس المحيط 6. وتتقاطع مع ما أورده عبد الحليم محمد قنبس في "معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية"7،وما أقره

مجمع اللغة العربية في "المعجم الوسيط" 8 .

وفي الاصطلاح يحيل لفظ السيرة على" نمط سردي حكائي ، ينتظم في فضاء زمكاني محدد، يتولى فيه الراوي ترجمة حياة ذات خصوصية إبداعية في مجال حيوي و معرفي ،فيها من العمق والغنى ما يستحق أن يروى "9 . فالسيرة العربية بأساليبها المتنوعة ، تعنى بطرق مباشرة وغير مباشرة برحلة التكون الفكري، والعقائدي – للشخصية مدار السرد - الأمر الذي يجعل المؤلف هو المركز الذي يضفي الأهمية على ما حوله **10**.

أما السيرة الذاتية فهي" الشكل الأهم والأخطر من شكلي السيرة ، يتكفل فيه الراوي السير ذاتي برواية أحداث حياته"11. وهي الدلالة التي تتقاطع عندها أغلب المعاجم* ومن ذلك ما أورده إبراهيم فتحي في مؤلفه"معجم المصطلحات الأدبية حين جعلها بمعنى"سرد قصصي يتناول فيه الكاتب نفسه ترجمة حياته ...إذ يحاول أن يعرض حكاية متميزة لما يعتبره أكثر أحداثه أهمية و دلالة.وقريب من هذا الطرح يوضح سعيد علوش في "معجم المصطلحات "أن الأتوبوغرافيا " سرد إحالي يركز فيه على التاريخ الشخصي."

وقد ظهر مصطلح السيرة الذاتية للمرة الأولى في فرنسا عام 1832؛ كترجمة لمصطلح ."Autobiographie" - ذو الأصول اليونانية – وتتكون هذه الكلمة من: الذات (Auto) – الحياة(bio) - الكتابة (graphie) **12** . ولعل أشهر التعريفات المقدمة للسيرة الذاتية ،و أكثرها تداولا بين الدارسين ذلك الذي قدمه فيليب لو جون (Philipe Lejeune)" السيرة حكي استيعادي نثري ، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية ،وعلى تاريخ شخصيته "13.

ثالثا- تمظهرات السير ذاتي في المنقذ من الضلال: استخلص فيليب لوجون من التعريف السابق عناصر أساسية تشكل النص السير ذاتي ، وهي العناصر ذاتها التي يقوم عليها جانب من سيرة الغزالي في المنقذ من الضلال ومنها :

1-جنس الكلام "قصة نثرية ": يتضح للقارئ من الأسطر الأولى أنه بصدد قراءة نص سردي بامتياز ؛ فمنذ البداية يعلن (المؤلف / السارد) ؛ أنه سيحكي جزءًا من حكايته الشخصية ينقل بوساطتها تفاصيل معاناته في رحلته لاستخلاص الحق .وقد بين ذلك صراحة في مقدمة الكتاب حين قال : **"**أما بعد:فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق"14.وهنا تظهر القصدية فالغزالي يعي بشكل كامل أنه يسرد "حكاية " أي يقدم نصا سرديا يستجيب للمركبات الأولى لهذا النمط من راو ، ومروي له، و مروي، على النحو التالي :

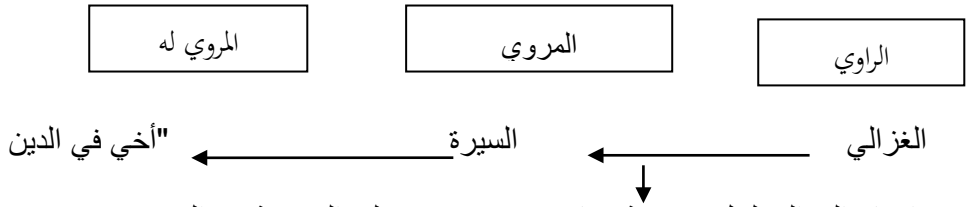

فقد اختار الغزالي لنقل خلاصة تجاربه ، ووصف رحلته المضنية في البحث عن الحقيقة واليقين قالب السرد ،الذي يتسع ليشمل خيوط الحكايات المترابطة التي تشكل بنية ومضمون سيرته الذاتية؛إذ ينهض المنقذ من الضلال على ست حكايات سردية جاءت موزعة على موضوعين متباينين :

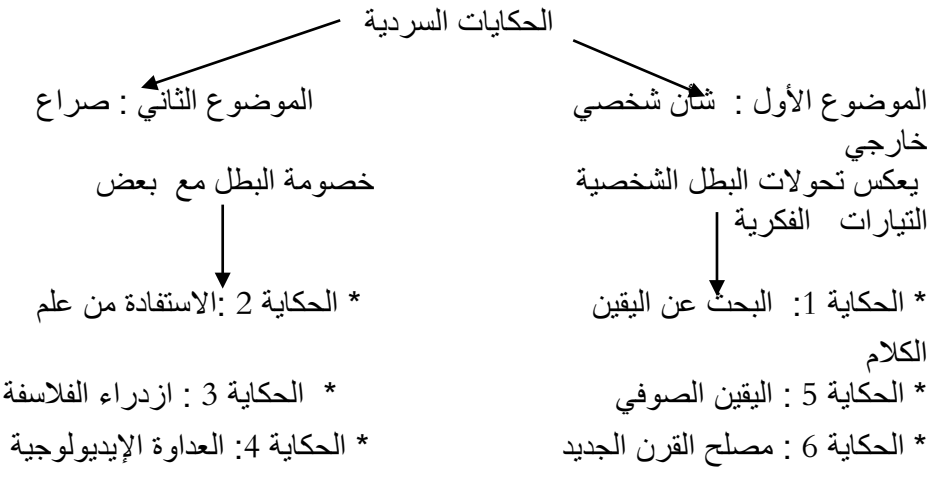

.

ويتضح أن هذه الحكايات تنتظم في حلقات متصلة ،تبنى كل واحدة على سابقتها " فقد جاءت في متوالية زمنية ، وتعاقبية سببية من حيث الترتيب السردي ؛ بمعنى أن الحكاية السابقة تمهد للحكاية اللاحقة على مستوى الزمن السردي المتصاعد"**15**

2- الموضوع المطروق : الحياة الفردية ، وتاريخ الشخصية . ويتحدد ذلك عبر نقاط أهمها:

- تأطير البعد الزماني للرحلة : يوجه الغزالي انتباه المتلقي – منذ بداية الكتاب – إلى انحصار الحديث في الجانب الروحي من سيرته الذاتية - و يؤطرها بمعالم زمنية ،- مكانيةومذهبية 16.

- فقد بدأ رحلته قبل بلوغ العشرين من عمره ، ووصل إلى العلم اليقيني الذي اطمأن إليه؛(الصوفية) في الثامنة و الثلاثين من عمره (488هـ). وفي ذلك قال "ولم أزل في عنفوان شبابي ،وريعان عمري ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين"**17**

- وحببت إليه الخلوة ، والعزلة، والانقطاع للعبادة فترة طويلة (أحد عشر عاما)(488هـ -499ه)- "فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار... ودمت على ذلك مقدار عشر سنين"18

-وشرع في كتابة سيرته عندما شارف على الخمسين ،"... وقد أناف السن على الخمسين"19.

- تأطير البعد المكاني : قدم الغزالي تحديدا دقيقا ومنظما للأماكن التى غطتها رحلته الروحية والعلمية في سبيل البحث عن اليقين والحقيقة ، فقد بدأ من بغداد ، وختمها في نيسابور / مرورا ببلاد الشام ، و القدس ، والخليل ، ومكة ، والمدينة . وزار مساجدها وبقاعها المقدسة في فترة عزلته وانقطاعه للعبادة .وقد بين ذلك قائلا: "ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، ولكونه وقفاً على المسلمين. فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه.ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة ؛ والرياضة والمجاهدة، الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابـها على نفسي.ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابـها على نفسي. ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة. وزيارة رسول الله صلى الله

عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ؛ فسرت إلى الحجاز.ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه. فآثرت العزلة [به] أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر..20

- تحديد البعد الروحي والفكري : اشتملت رحلته الروحية على أربع محطات مذهبية وعلمية، ذكرها في مقدمة كتابه :"...وأتوغل في كل مظلمة ، وأتـهجّم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين مُحق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهريّاً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنـه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ،ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته"**21**

3-منزلة المؤلف وموقع الراوي: التطابق بين المؤلف و الراوي الشخصية الرئيسة: يتضح وعي الغزالي بميثاق السيرة الذاتية ؛ الذي يحتم الاندماج بين المؤلف الواقعي ، والسارد و الشخصية الرئيسة22،ويتجلى ذلك في ما يلي:

1/ مطلع السيرة ؛في قوله :" فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق... وما استفدته أولاً من علم الكلام اجَتَوْيتُه ثانياً من طرق أهل التعليم ...،وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف ، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي .... ،وماصرفني عن... وما دعاني إلى معاودته بنيْسابورَ بعد طول المدة ،فابتدرت... ،وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوثقاً منه ، وملتجئاً إليه"**23**

2/ مع مطلع كل حكاية ، ومع بداية كل استطراد الظهور بصيغة المتكلم ،وتأكيده أن تجربته الشخصية في دراسة تلك المذاهب و العلوم هي الغرض الأساس من الكتاب. ومن أمثلة ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

* " ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصَّلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي ؛ وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة [على أهل السنة] وحراستها عن تشويش أهل البدعة "24.

*"ثم إني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة وعلمت يقيناً ، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل [ذلك] العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله ، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقّاً. ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك " **25**.

* "ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير وافٍ بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بني الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، فعنّ لي أن أبحث في مقالاتـهم ، لأطّلع على ما في كنانتهم"**26**.

*"ثم إني ، لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بـهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس. والتنـزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل (بـها) إلى تخلية القلب عن غير الله (تعالى) وتحليته بذكر الله"**27**.

وتتجلى من خلال هذه المقاطع تلك اللحمة والتطابق التام بين صوت المؤلف الواقعي أبو حامد الغزالي ،و السارد،و الشخصية الرئيسة مدار السرد.

أبو حامد الغزالي
المؤلف الواقعي ← أحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق...
الشخصية الرئيسة

والملاحظ أن ما ساهم في تأكيد هذه اللحمة براعته في توظيف الضمائر ؛ إذ تكثر ضمائر المتكلم في الكتاب وبخاصة في بداية كل تجربة مع مذهب ،أو علم جديد خاصة في التجربة الصوفية (كما هو مبين في الأمثلة).

3/ من خلال انتقاله بين صوت الراوي الخارجي والراوي الداخلي ،لاسيما في تلك المقاطع التي تعكس حيرة الغزالي وشكه طيلة رحلته للبحث عن اليقين .ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله :

-" فقلت في نفسي:أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور"**28**

-" فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة"29

-" فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي"**30**

-" فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة [إلي] ، فكان لا ينطق لساني بكلمة [واحدة] ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب" 31*،

لقد أتاح اختيار نمط "الراوي الداخلي " الفرصة للغزالي لنقل المشاعر الداخلية للشخصية الرئيسة-شخصيته- ، في شكل حوار نفسي متعدد الأبعاد، يعكس جانبا من تلك المعاناة النفسية التي عاشها ؛ابتداء بشكه في ما كل ما هو متعارف عليه ، ورغبته في الوصول إلى الحقيقة الكاملة والمجردة واليقينية ، مرورا بكل تلك الصدمات التي واجهته ؛ فكلما ظن أنه وجد ضالته إلا وتبين له أن ما توصل إليه يحمل نقائصه في ذاته ، فتستأنف الرحلة من جديد وهكذا .. فلولا هذا التماهي بين هذه الثلاثية لما تمكن الغزالي من نقل هذا الجزء من سيرته الذاتية مكتمل الأبعاد والمرامي .

4- القص الارتدادي: ترتكز السيرة الذاتية على آلية السرد الاسترجاعي ،التي تقوم بتفعيل عمل الذاكرة وشحنها بطاقة استنهاض حرة وساخنة لمخزونها الذاكراتي المرشح للعمل في الحقل السيرذاتي 32. على النحو الآتي:

1/ انتخاب حلقات معينة مركزة من سيرة هذه الحياة ؛ وهو ما تبين سابقا حين ركز الحديث على جزء من مراحل رحلته الفكرية التي بين أطرها الزمانية والمكانية بدقة متناهية .

2/ رصف المحطات الحياتية المختارة في قالب سردي وبأسلوب خاص؛ إذ يحاول الراوي الإفادة من التقنيات السردية المختلفة والمتكاملة في ما بينها لبناء نصه السيرذاتي ، ودعمه بأفضل الشروط الفنية33 ومن ذلك توظيف :

- تقنية الخلاصة :فحسب جيرار جينيت "المجمل هو سرد أحداث ووقائع جرت في

ساعات أو أشهر أو سنوات من الوجود دون تفاصيل أعمال أو أقوال"34، أي المرور السريع على التفاصيل والأفعال والأقوال. وهو ما ينعكس على مساحة النص فتكون أقل من مساحة زمن الأحداث. ولعل أهم وظائف السرد التلخيصيRécitSommaire هو الاستعراض السريع لفترة من الماضي35،ذلك لأن المرور على بعض الجزئيات أمر ضروري للربط الكلي بين المشاهد؛وهو ما وظفه الغزالي بالتحديد . إذ لجأ إلى توظيف تقنية الخلاصة بنوعيها ؛ المحددة وغير المحددة ، ومن أمثلة ذلك :

-"منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجّة هذا البحر العميق.."36 خلاصة محددة .

- "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضُعتا في جبِلّتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا" 37 خلاصة غير محددة

-"ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية"38 خلاصة غير محددة

- فأطلعني الله سبحانه [وتعالى] بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين.ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره".39 خلاصة محددة

- "لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين". 40 ← خلاصة محددة

- تقنية الحذف: وهي"تقنية زمنية تقضي بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصة وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث" 41 فيتجاوز بذلك "أحداث فترة زمنية معينة، ويرمي إلى إلغائها أو حذفها من البنية السطحية لزمن النص" 42، ولعل أبرز أنواعه التي وظفت الحذف الضمني؛ إذ لا يصرّح في النص بوجودها_ االمدة _ بالذات، وإنما يستدل عليها بثغرة في التسلسل الزمني أي الانتقال من موضوع إلى آخر دون تفصيل. ومن أمثلته .

-" ثم لاحظت أحوالي ؛ فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي منالجوانب ؛ولاحظت أعمالي –وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة."43

- "ففارقت بغداد ، وفرقت ماكان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال44

- تقنية الحوار :يعتبر الحوار من أهم أسس ومقومات النص السيرذاتي ،يكتسبه مذاقا خاصا ، لا سيما تلك المصداقية التي يتلمسها القارئ وهو يتنقل بين المتحاورين مستكشفا عوالم جديدة وأفكار متنوعة تغني معارفه وتصقلهاوقد تجلى ذلك في حواره مع شخصية الأخ في الدين والتي قد تكون شخصية حقيقية ، كما قد تكون شخصية افتراضية استدعتها الضرورة لبناء نص السيرة الذاتية لتضفي مصداقية عليها ولتكون مطية يتخذها الغزالي سبيلا ليستفيض في الشرح والرد على أهل المذاهب والفرق .

5-تنوع الضمائر في النص السير ذاتي: استعمل الغزالي في نصه السير ذاتي مزيجا بين ضمير المتكلم والمخاطب لغايات جمالية و فنية :

-تكثر ضمائر المتكلم في الكتاب وبخاصة في بداية كل تجربة مع مذهب ،أو علم جديد خاصة في التجربة الصوفية (وهو ما بيناه سابقا) 45.

-يوظف ضمير المخاطب ليخفف من سيطرة المتكلم ، وليتخذه سبيلا للاستطراد في الشروح والرد على أصحاب المذاهب و الآراء ومن ذلك :
-"اعلموا - أحسن الله (تعالى) إرشادكم ،وألاَنَ للحق قيادكم –إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب ، على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون46".

-"اعلم: أنـهم ، على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبـهم ، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون ، والطبيعيون ، والإلهيون". 47.
-"اعلم: أن علومهم - بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه - ستة أقسام:رياضية ،ومنطقية ، وطبيعية، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية".48

-"اعلم:أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة ،خلق خالياً ساذجاً لاخبر معه من عوالم الله (تعالى)! والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى49"

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة تتجلى ملامح جزئية من السيرة الذاتية لأبي حامد الغزالي متمثلة في الجانبين الفكري والعلمي، وقد حاولت الإبانة عليها بتتبع كيفية اندماج الذات الساردة مع فعل السرد في نص سردي سير ذاتي يحمل فكر الكاتب وتوجهاته .وخلصت إلى جملة من خصائص النص السير ذاتي ولعل أهمها ؛
-انضواء النص السيرذاتى تحت راية السرد،و قيامه على تتبع مراحل من الشخصية مدار السرد (وإن كانت مقتصرة على مرحلة عمرية ، أو جانب من جوانب الحياة الفكرية للشخصية)وبيان أهميتها في تشكيل وعيه وفكره.
-يتجلى في النص السيرذاتي التقاطع بين (المؤلف) و (السارد / الراوي)و (الشخصية الرئيسة) فجميعها تحيل إلى شخص الغزالي وتفصح عن توجهاته وأفكاره وحتى معاناته وشكوكه ورغبته الملحة في إيجاد اليقين
- نهوض النص السير ذاتي على تقنية الاسترجاع وكل ما يغذيها من تقنيات سردية ؛كالخلاصة والحذف ، والحوار ..فجميعها تتكامل من أجل التركيز على مراحل معينة يُعتقد أن لها أهمية في حياة الشخصية
-إن تنوع استعمال الضمائر بين المتكلم والمخاطب يكسر الرتابة ويولد التجانس في بنية النص السير ذاتي مما يجذب المتلقى ويحقق فكرة المشاركة و المعايشة .
-إن النص السير ذاتي نص سردي ذو طابع توثيقي يعكس فكر صاحبه ، وفلسفته ، ورؤيته للحياة. كما يقدم صورة عن البيئة التي عاش فيها وتوجهاتها السياسية والعقائدية مما يسهم في إعطاء صورة متكاملة عن الأجواء المساعدة في تكوينه .

الهوامش والإحالات :

1-للتوسع ينظر:أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي : المنقذ من الضلال .تقديم :أحمد شمس الدين .دار الكتب العلمية . بيروت .لبنان .ط1. 1988. ص8-12 / أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي : المنقذ من الضلال.تحقيق وتقديم :محمود بيجو.مراجعة:سعيد رمضان البوطي وعبد القادر الأرناؤوط. دار التقوى . دمشق . سوريا .دط. دت . ص6 وما بعدها / مرسل فالح العجمي : السرديات - مقدمة نظرية و مقتربات تطبيقية .مكتبة آفاق . الكويت . ط1. 2010 .ص238 / أسامة محمد البحيري : مقارنات في السرد العربي .مؤسسة الانتشار العربي . بيروت . لبنان . ط1 .2012 ص27 .

2-مشهد العلاف : كتب الإمام الغزالي الثابت منها و المنحول . 2002 ص ص (6-40) www.ghazali.org/biblio/AuthenticityofGhazaliWorks-AR.htm
3- المرجع نفسه :غير مرقم جزئيا ؛ تنظر الصفحات (6-40).
4- أسامة محمد البحيري : مقارنات في السرد العربي . ص28
5-محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي: لسان العرب. تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرون . طبعة دار المعارف .بيروت . لبنان . (دت). (دط) . ص 2170 .
6-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: معجم قاموس المحيط . تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي. مطبعة الرسالة. بيروت . لبنان .ط8 . 2005 . ص421 .
7- عبد الحليم محمد قنبس :معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية.مكتبة لبنان . بيروت . لبنان. دط. 1987 .ص 65 .
8 -مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط . مكتبة الشروق . القاهرة . مصر . ط4 . 2004. ص467 .
9 -محمد صابر عبيد :تمظهرات التشكل السير ذاتي –قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية. عالم الكتب الحديث . إربد. الأردن .ط1 . 2010 .ص 195.
10-عبد الله إبراهيم : موسوعة السرد العربي .المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر .بيروت . لبنان .ط1. 2005 .ص 194
11 -محمد صابرعبيد:تمظهرات التشكل السير ذاتي - قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية.ص195
*ينظر : إبراهيم فتحي :معجم المصطلحات الأدبية.المؤسسة العربية للناشرين المتحدين .تونس. ط 1 . 1986 .ص202/ سعيد علوش :معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة .دار الكتاب اللبناني بيروت –سوشبريس. الدار البيضاء .ط1 .1985. ص . 29
12: ناصر بركة :أدبية السيرة لذاتية في الأدب الحديث . أطروحة دكتوراه غير منشورة . جامعة الحاج لخضر.2012-2013.
13– فيليب لو جون : السيرة الذاتية –الميثاق و التاريخ الادبي .ترجمة : عمر حلي . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء .ط1 .1994. ص 8. / وينظر:محمد القاضي :معجم السرديات . دار محمد علي للنشر .تونس . ط1 .2010. ص260 ا
14 -مرسل فالح العجمي : السرديات مقدمات نظرية ومقترحات تطبيقية . ص204
15-المرجع نفسه : ص250.
16-أسامة محمد البحيري: مقارنات في السرد العربي . ص30 .
17-أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال. ص 23 .
18 –المصدر نفسه:ص 60 .
19 –أسامة محمد البحيري :مقارنات في السرد العربي . ص30 .
20-أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال. ص 61.

21- المصدر نفسه :ص 24، 25
22-أسامة محمد البحيري :مقارنات في السرد العربي .ص 34 .
23-أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال.ص 23 .
24- المصدر نفسه:ص 32
25- المصدر نفسه:ص 34 .
26- المصدر نفسه :ص 48.
27- المصدر نفسه:ص 56.
28- المصدر نفسه:ص 26.
29- المصدر نفسه:ص31
30- المصدر نفسه :ص 59.
31- المصدر نفسه: ص60 .
32- محمد صابر عبيد : تمظهرات التشكل السير ذاتي .ص 196
33- المرجع نفسه : ص 196.
34_ جيرار جينيت:خطاب الحكاية- بحث في المنهج. ترجمة: محمد معتصم.منشورات الاختلاف.الجزائر.ط3. 2003.ص 119
35-حسين بحراوي : حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي(الفضاء،الزمن ،الشخصية) . المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط2. 2009 .ص156
36- أبو حامد الغزالي :المنقذ من الضلال .ص 23.
37- المصدر نفسه:ص34
38- المصدر نفسه :ص34
39- المصدر نفسه:ص34
40- المصدر نفسه: ص70
41-حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي. ص156.
42-نفلة حسن أحمد العزي :تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني.دار غيداء. عمان .الأردن. ط1 .2011 . ص 81
43-أبو حامد الغزالي :المنقذ من الضلال .ص59
44- المصدر نفسه:ص61
45- تنظر المقاطع في الصفحات (32 ،34 ، 48،56).
46-أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال.ص24
47- المصدر نفسه:ص34
48- المصدر نفسه:ص38
49- المصدر نفسه:ص 66